



مطالعات في « ألف ليلة وليلة »

عبد الله البرى وعبد الله البحرى

قصة فلسفية ريفية

للدكتور حسين فوزى

—

إننى أراه هذا الصياد المعدم وقد عاد من صيده فارغ الجمعة ينتظره بالبيت نسمة عيال وأمهم التى وضعت فى هذا اليوم بالذات مولودها العاشر . أراه فى عودته واقفاً بباب الخباز وسط الرحام وكان « وقت غلاء » ولا يوجد عند الناس من المؤن إلا القليل فى تلك الأيام ^(١) ، يرمى الأرغفة المتراسة بنظر زائع ، ويستعبر رائحة « العيش السخن » تشبهه نفسه . أراه مائلاً أمامى هذا الصياد « الغلبان » خرج صباح اليوم باقى الشبكة « على بحث المولود الجديد » فلا تصيد إلا رملاً وحصى وأعشاباً . وهو يتساءل « كيف يخلق الله هذا المولود من غير رزق » وقد حفظ من أقوال الأقدمين : « من شق الأشدق ، تكفل لها بالأرزاق . فإله تعالى كريم رزاق »

وإذا بالخباز يتأديه ويسأله إن كان يطلب خبزاً . ثم يلح عليه فى أن يحمل منه ما يريد فهو صابر عليه حتى يأتية الخير . ويرضى الصياد على شريطة أن يقدم شبكته رهناً ، فيرفض الخباز احتجاز الشبكة التى يقوم عليها أود الصياد ، ويمطيه خبزاً بعشرة أنصاف فضة ، ويقدم له عشرة أنصاف فضة « لطبخ بها طبخة » . على أن يجيئه بسمكة فى الغد .

(١) الفقرات الموضوعة بين أقواس منتظمة من النص الأصلية للنص كما هى دون تبديل . وكذلك الأحاديث باقية كما هى فى الأصل . وكل ما اتخذته بشأنها هو ترتيبها حسب الأوضاع المصرية النجدة فى الفصل .

وفى اليوم التالى يخفق فى صيده كما أخفق فى اليوم السابق ، — فيخجل أن يقف بباب الخباز . بل هو يميل بخطاه أمام حانوته ولكن الخباز يتأديه قائلاً « يا صياد ، تعال خذ عيشك ومصروفك فأنتك نسيت » . ودام الحال على هذا أربعين يوماً حتى سئم الصياد هذه الحياة ، وود أن لم يكن الخبز فى طريقه إلى البحر حتى لا يضطر إلى المرور بالخباز الكريم . ولكن زوجه تشجعه على المضى إلى البحر ، وتشكر الله الذى قبض لهم هذا المحسن ويذهب الصياد إلى البحر فى اليوم الواحد والأربعين وهو يدعو الله أن يرزقه « ولو بسمكة واحدة يهديها للخباز » : وإذا بالشبكة متناقلة يسحبها فى مشقة . حتى إذا هى عادت إليه ألفاها تحمل . . . حملاً ميتاً ! وهرب من الرائحة الكريهة إلى ناحية أخرى من الشاطئ . وتناقلت عليه الشبكة أكثر من المرة السابقة ، حتى إذا ماجذبها إليه خرج منها رجل حسب الصياد « عفريتاً ممن اعتاد سليمان أن يجلسهم فى المقام يرى بها إلى البحر » . وصاح الصياد :

— الأمان ، يا عفريت سليمان !

فيجيبه الرجل :

— تعال يا صياد ، لا تهرب منى فأنا آدى مثلك . خلصنى

انتال أجرى .

يخلصه الصياد ويعلم من أمره أنه ليس عفريتاً من الجن . فيسأله عن رماء فى البحر ، ويجيبه بأن البحر مقره ومثواه . فهو من « أولاد البحر » وقع بالشبكة صدفة ، وكان يوسعه أن يقطعها ليخلص نفسه ، لولا أنه « راض بما قدر الله » . ويسأل الصياد أن يمتعه « ابتغاء لوجه الله » . ويتفق وإياه أن يجتمعا فى ذلك الموضع كل يوم ، فيأتيه الصياد بفواكه البر « وعندكم منها العنب والتين والبطيخ والخوخ والمان وغير ذلك » ويأتيه هو

« بعمادن البحر من مرجان وؤلؤ وزبرجد وزمرد وياقوت وغير ذلك » .

ويقرآن الفاتحة ، ويخلصه الصياد من الشبكة ثم يتفقان أن ينادى الصياد عليه من البر كلما أراد ، قائلاً « أين أنت يا عبد الله يا بحري ! » فيلبي .

— والآن ما اسمك أيها الصياد ؟

— اسمي عبد الله

— أنت إذن عبد الله البري ، وأنا عبد الله البحري . إنتظر

حتى آتي لك بهدية

ويختفي عبد الله البحري في الماء هنيئة تبدو لعبد الله البري كأنها دهر . ويتأسف على تركه هذا المخلوق يقات من يديه ، وكان في استطاعته أن يأخذه إلى المدينة يعرضه في الأسواق ، ويدخل به « بيوت الأكار »

ويعود عبد الله البحري بالؤلؤ والمرجان والزمرد والياقوت ملء اليدين . ويمتدح لأخيه عبد الله البري عن عدم تمكنه من أن يحمل إليه أكثر من ذلك . ولو أن « عنده مشنة للأهلاء » ويتواعدان على اللقاء في الأيام التالية

وغدا عبد الله البري رجلاً واسع الثروة بفضل صداقته لسميته البحري . وقد أخفى سره إلا عن الخباز الذي أحسن إليه في عسره . وراح يقاسمه الجواهر البحرية

ولكن هذه الثروة المفاجئة تستثير شكوك الناس . وينتهي الأمر إلى أن يتهمه شيخ الجوهريّة بسرقة حلى ابنة الملك . ويقناده الحرس إلى القصر ، فتنكر الأميرة أن هذه جواهرها . وترسل إلى والدها من يقول له بأن بعض اللآلئ أجمل من لآلئ عقدها . فيغضب الملك وينهر شيخ الجوهريّة وأتباعه . فاذا اعتذر الرجل بأن « الصياد كان فقيراً فاستكثرنا عليه هذا الغنى المفاجئ » صاح الملك فيه وفيمن حوله : « أتستكثرون النعمة على مؤمن ؟ اخرجوا لا بارك الله فيكم »

وسأل الصياد عن قصته فسردها عليه . وهنا يطأطي الملك الحكيم رأسه هنيئة ثم رفعه قائلاً :

— يا رجل ، هذا نصيبك . ولكن المال يحتاج إلى الجاه ، وأنا أستندك بجاهي

ثم يزوجه ابنته وبقيمه وزيراً له ، ويحنو على أطفاله المشرة

وتتكون زوجة الصياد موضع تكريم الملكة « فتنم عليها ، وتجعلها وزيرة عندها »

وغداة الزواج يطل الملك من النافذة فيرى وزيره وصهره عبد الله حاملاً على رأسه « مشنة » ملأى بالقواكه فينكر عليه ذلك ، ويحييه صهره بأن لا قبل له بإخلاف ميعاد صديقه عبد الله البحري ، خصوصاً في الظرف الحاضر إذ يحق له أن يتهمه بأن « إقبال الدنيا عليه ، قد ألهاه عنه »

يحافظ عبد الله البري على عهد صاحبه البحري ، ويواصل قسمة الجواهر بينه وبين صاحبه الخباز . ثم ينتهي إلى التحدث بشأنه مع الملك الذي يقول له « أرسل إلى صاحبك الخباز وهاته لنجمله وزير ميسرة »

وربما حسبت القصة منتهية عند هذا الحد . والواقع أن مجرد استقرار الحال قد يؤذن بختامها ، فعبد الله البري يذهب كل يوم بسلّة القواكه يستبدلها بجواهر البحر . وحين تخلو البساتين من القواكه يحمل إلى صاحبه الزبيب واللوز والبندق والجوز والتين . ويدوم الحال على هذا عاماً تتطور القصة في آخره تطوراً جديداً أسرده عليك

جلس عبد الله البري ذات يوم على شاطئ البحر يتحدث إلى صديقه عبد الله البحري فيبادره هذا قائلاً :

— يقولون يا أخي إن النبي صلى الله عليه وسلم مدفون عندكم في البر ، فهل تعرف قبره ؟

— نعم ، فهو في مدينة يقال لها طيبة

— وهل يزوره أهل البر ؟

— نعم .

— هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة النبي الكريم . فن زاره استوجب شفاعته . هل زرته أنت يا أخي ؟

— لا ، فقد كنت فقيراً لا أجد ما أنفقه في الطريق . ولم أصبح غنياً إلا منذ عرفتك . والآن وجبت عليّ زيارته بمد أن أحج إلى بيت الله الحرام . وما منعتني عن ذلك إلا محبتي لك

— وهل تفضل محبتي على زيارة قبر رسول الله الذي يشفع لكم يوم العرض على الله ؟

— إن زيارته والله مقدمة عندي على كل شيء . وأطلب منك إجازة أزوره هذا العام

— أعطيك الإجازة بزيارته . وإذا وقفت على قبره فاقرئه مني السلام . وعندى أمانة فادخل مني في البحر حتى آخذك إلى مدينتي وأدخلك بيتي ، وأعطيك الأمانة لتضعها على قبر الرسول — يا أخي ، أنت خلقت في الماء ، ومسكك الماء فهو لا يضررك . فهل إذا خرجت منه إلى البر يصيبك ضرر ؟

— نعم ، يحرق بدني وتذهب عليّ نبات البر فأموت — كذلك أما ، خلقت في البر ومسكني البر . فإذا دخلت البحر يدخل الماء في جوفى ويخنقني فأموت — لا تخف ، فإني آتيتك بدعان تدهن به جسمك فلا يضررك الماء ، حتى لو قضيت فيه بقية عمرك

وعبد الله البرى رجل كله إيمان واستكانة . فهو راض أن يأتيه بذلك الدهان يجربه . ويحمل عبد الله البحرى « المشنة » ويفوص في البحر . ثم يعود بها ملأى « شحاً » مثل شحم البقر ، لونه أصفر كالون الذهب ، ورائحته زكية . ويخبر صاحبه بأنه شحم نوع من الأسماك يقال له « الدندان » ، أعظم أصناف السمك خلقة »

— وهو أشد أعدائنا علينا ، وأكبر من أى دابة من دوابكم في البر . ولو رأى الفيل لا يتلوه — وماذا يأكل هذا المشؤوم يا أخي ؟ — يأكل من دواب البحر . أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر ، القوي يأكل الضعيف ؟ — يا أخي ، إني أخاف إذا طوفت معك في البحر أن يصادفني هذا النوع فيأكلنى

— خفف عنك ، فإنه متى رآك عرف أنك ابن آدم تخاف منك وهرب . والدندان أشد ما يكون خوفاً منكم . لأن شحم ابن آدم سم قاتل له . بل ليكنفى أن يسمع صياح ابن آدم فيموت هلعاً « وتوكل عبد الله البرى على الله ، وخلع ملابسه ودفعها في رمال الشاطئ . ثم دهن نفسه بشحم الدندان وغاص في الماء . وفتح عينيه ومشى عينا ، شمالاً والماء لا يضايقه . وجعل ينزل إلى القعر ثم يرتفع بكل سهولة »

واندفع عبد الله البحرى أمامه دليلاً له في تلك النزهة البحرية النادرة . فرأى عن يمينه وشماله جيالاً . وشاهد أصنافاً عديدة من الأسماك « البمض كبير ، والبمض صغير . منها ما يشبه

الجاموس ، ومنها ما يشبه الكلاب ، وشئ يشبه الأدميين . وكلا قرب عبد الله البرى من نوع هرب هذا منه . فيسأل صاحبه : — يا أخي ، ما لى أرى كل هذه الأسماك تهرب منا ؟ — تخافة منك يا أخي . فجميع ما خافه الله يخاف ابن آدم . ووصلا إلى جبل عال ، فشى عبد الله البرى بجانب الجبل . وإذا بصيحة عظيمة أتجه إلى مصدرها بنظره فرأى شيئاً أسود منحدرأ نحوه من الجبل ، وهو « أكبر من الفيل والجمل » . — وسمع صديقه عبد الله البحرى ينادى عليه :

— دونك وهذا الدندان ، فهو متجه إلينا في طلبى ليأكلنى . صح به ! وصاح عبد الله البرى فزعاً وطائماً في آن واحد . فإذا بالدندان يقع ميتاً . يتعجب عبد الله البرى ويقول : « سبحان الله ! لم أضربه بسيف ولا بسكين . وما هو ذا على ضخامة جسده لا يتحمل صيحتى ! »

— ويدخل الصاحبان مدينة « بنات البحر » ، فيهن عبد الله البرى بأمر هذه الإثبات لا ذكور لها ويتساءل كيف تستطيع أن تخلف نسلاً

— إنهن منفيات في هذه المدينة بأمر ملك البحر . ولا يمكنهن الخروج من هذا المكان ، أو تلهمن دواب البحر — هل في البحر غير هذه المدينة ؟ — كثير

— وجعل عبد الله البرى « يتفرج على عجائب البحر » . وقد رأى لبنات الماء « وجوها كالآقار ، وشموراً كالنساء . ولهن أيد وأرجل ثابتة في بطونهن ، وذنب كذنب السمك امتد من مؤخرتهن » . وكان هذا شأن رجال المدن البحرية

— يا أخي ، إني أرى الإثبات والذكور مكشوفى العورة .

— لأن أهل البحر لا قماش عندهم

— وكيف يصنعون إذا تزوجوا ؟

— أهل البحر — فيما عدا المسلمين منهم — لا يتزوجون .

وكل من تعجبه أنى ...

وما زال عبد الله البحرى بصاحبه يدور به على المدائن وأهلها

في أغوار البحر مدى ثمانين يوماً . فيسأله عبد الله البرى

— يا أخي ، هل بقيت في البحر مدائن ؟

ويأخذونه إلى الملك فيلتقاه ضاحكا وهو يقول « مرحبا بالأزعر ». وجمل من في حضرة الملك يتضاحكون مرددين « أى والله إنه لأزعر ! »

ويقص عبد الله البحرى على الملك قصة صاحبه ، ثم يستأذنه فى أن يعود به إلى البر « لأنه سئم أكل السمك نيا ، ولا يحب أكله إلا مطبوخا ومشويا ». ويأذن الملك له بالرحيل بعد أن يزوده بهدية عظيمة من درر البحر وجواهره

ثم يعود به عبد الله البحرى إلى مزارته ، ويسلمه الهدية التى يرجو أن يوصلها إلى قبر النبي ، ويصطحبه عائداً إلى البر

وبينا هما فى طريقهما وسط الماء ، يلتفت عبد الله البرى إلى جماعة من أهل البحر يفتنون ويرقصون حول سمات ممدود من السمك . فيسأل عما إذا كان عرساً هذا ، ويجيبه عبد الله البحرى : إنما هو ماتم

— أو إذا مات عندكم ميت تفرحون له ، وتفتنون وتأكلون ؟

— نعم . وأنتم يا أهل البر ، ماذا تفعلون ؟

— نحن نحزن عليه ونبكي . ونشق النسوة جيوبهن ، وباطنهن ويندن الميت

وهنا يحماق عبد الله البحرى فى صاحبه البرى ، ويستأذنه فى أن يسترد الأمانة . وعند وصولهما إلى البر يقول له :

— لقد قطعت صحبتك وودك ، فإن ترانى بعد اليوم

— لم هذا الكلام ؟

— ألسم يا أهل البر أمانة الله ؟

— نعم

— كيف يحزنكم أن يأخذ الله أمانته ؟ وكيف أعطيك أمانة النبي وأنتم إذا أناكم المولود تفرحون به ، وقد أودع الله الروح فيه أمانة . فإذا استردها تندبون وتولولون ؟ كلا ، ما بي حاجة إلى صحبتكم بعد اليوم يا أهل البر !

ويخفى عبد الله البحرى وسط الأمواج ويعود عبد الله البرى إلى صهره الملك يقص عليه ما رأى من عجائب البحار

وقد لبث زمناً طويلاً يذهب إلى الشاطئ ينادى صاحبه عبد الله البحرى فلا يلبى النداء

وتنتهى القصة بالصيغة التقليدية إذ تقول بأنه أقام والملك نسيه

— لو كنت فرجتك ألف عام ، كل يوم على ألف مدينة ، وأوتيتك فى كل مدينة ألف أمجوبة ، لما أظهرتك على قيراط من مدائن البحر وعجائبه .

— يكفينى هذا ، فقد سئمت أكل السمك ، وأنت لا تطعمنى صباحاً ومساءً إلا سمكا طريا ، لا مطبوخا ولا مشويا .

فرجتى على مدائن كثيرة ، فأين مدينتك منها ؟

ويبلغان مدينة عبد الله البحرى ، فيعوده إلى مزارته ويقول له :

— هذا بيتى . وكل من أراد أن يكون له بيت ذهب إلى الملك وعين الموضع الذى اختاره مسكناً . فيرسل معه الملك طائفة من السمك تعرف بطائفة « الثقارين » ، لأن لها مناقير تفتت الجلود وإذا دخلون البيت ، تتقدم ابنة عبد الله البحرى وتبادر بأباها بالسؤال ، وقد نال منها العجب أن ترى مخلوقاً لا ذنب له :

— يا أبى ، ما هذا الأزعر الذى جئت به ؟

— هذا صاحبى البرى يا بني ، من كنت أجبى لك من عنده بالفاكهة البرية . تعالى سلمى عليه

وتتقدم إليه الغادة ، وتسلم عليه « بلسان فصيح ، وكلام بليغ » وتقدم له القرى ، سمكتين كبيرتين « كل واحدة منهما مثل الخروف » نياً كل متبرما بهذا السمك النسي

وتحضر امرأة عبد الله البحرى ، وهى « جميلة الصورة . ومعها ولدان ، كل ولد فى يده فرخ سمك بقرش فيه كما بقرش الإنسان فى الخيار » . وما أن رأت عبد الله البرى حتى صاحت :

— أى شئ هذا الأزعر ؟

وتتقدم هى وولداها ، يطيلون النظر إلى مؤخرة عبد الله البرى ويقولون « أى والله إنه لأزعر » ويتضاحكون طويلاً حتى يضيق ذرع عبد الله البرى بهذا الضحك فيلتفت إلى صاحبه ويقول :

— يا أخى ، هل جئت بى إلى هنا سخرية أولادك وزوجك ؟

ويمتدح عبد الله البحرى عنهم مؤكداً له أن المخلوق الذى لا ذنب له فى البحر نادر . وأنه إذا وجد واحد من غير ذنب فأنهم يأخذونه للسلطان ليضحك عليه . فلا تؤاخذ هذه المرأة وهؤلاء الصغار ، فقولهم كما تعرف ناقصة

وبينا هم فى الحديث يفد عليهم عشرة أشخاص كبار شداد ، ويقولون لعبد الله البحرى « لقد عرف الملك بأنك جئت بأزعر من زعر البر ، وهو يريد أن يراه حالا »

وأهلها في أسعد حال ، حتى أنهم هادمو اللذات ، ومفرقو الجماعات ، وماتوا جميعاً . فسبحان الحي الذي لا يموت ، ذى الملك والملكوت أما أن الموت مفرق الجماعات فليس من شك في ذلك . ولو أنه يشترك في هذا مع الحياة ذاتها ، فقد تكون الحياة مفرقة الجماعات ، ويمتاز الموت عنها بأن وفرقة نهائية لا مرد لها في هذه الدنيا

وأما أن الموت هادمو اللذات ، فهو أيضاً نهاية الآلام . وصاحب أو أصحاب قصص « ألف ليلة » هم آخر من يتكلمون عن اللذات ، وعن أن الموت هادها . فان أبطال قصصهم يلاقون الأهوال ، ويمانون آلام النوى والبماد والفقر ، وغير هذا من متاعب الحياة . نعم إن القصص تنتهي في الغالب إلى خاتمة سعيدة ، يحاول المؤلف أن يلقى في روينا دوامها حتى يحى مفرق الجماعات وهادمو اللذات ، إلا أن هذا أمر نشك في صحته كثير الشك

وهذه مسألة ثانوية على أية حال . والآن لنا أن نكشف عما في قصة « عبد الله البرى ، وعبد الله البحرى » من نفحة دينية عميقة ، تجعل لها مقاماً خاصاً بين قصص « ألف ليلة »

فهذا رجل معدم كثير الغيال تقول القصة بأنه لا يمتلك إلا شبكته ، يروح بها كل يوم إلى البحر . فان اصطاد قليلاً باعه وأفق على أولاده بقدر ما رزقه الله . وإن اصطاد كثيراً « طبخ طبخة طيبة ، واشترى فاكهة ، وما زال بصرف حتى يأتى على آخر ما معه وهو قائل في نفسه : رزق غد يأتى غدا » ويوم تضع زوجته مولودها العاشر يخرج على بركة الله تعالى إلى البحر « على بحث هذا المولود الجديد » فتقول له امرأته « توكل على الله » يمارس هذا الرجل الفقير وزوجه إذن فضيلة من الفضائل الدينية بإيمان كامل . ولكن التجربة في الولد العاشر كانت شديدة الوقر على الصياد . فقد مضى عليه أربعون يوماً لا يجد في شبكته رزقاً .

وهنا ننقل بنا القصة إلى طبقة اجتماعية أرفع قليلاً من طبقة الصياد . وتقدم لنا مثلاً جديداً من أمثلة الطيبة والورع في صاحب الخبز الذى يتكفل بأود الصياد وأسرته أربعين يوماً دون تدمير وفي إياقة مؤثرة إذ يؤكد للصياد أنه لا يعطيه إحساناً . بل هو محاسبه يوماً على ما قدم من خبز وعشرات فضة ، ولكن عندما يأتيه الخير ، لإيقيل ذلك . ولندع القصة نفسها تتكلم ، فنفسح

لنا عما انطبعت عليه نفس هذا الخباز من الخير :

« ووقف الصياد بنظر ويشم رائحة العيش الدخن . فصارت نفسه تشتهي من الجوع . ونظر إليه الخباز وصاح عليه : تعال يا صياد . أتريد عيشاً ؟ فسكت . فقال له : تكلم ولا تسبح فأنه كريم . إن لم يكن معك دراهم فأنا أعطيك ، وأصبر عليك حتى يجيئك الخير »

ثم انظر إلى امرأة الصياد يشكو لها زوجها أمره مع الخباز فتقول له : الحمد لله الذى عطف قلبه عليك . هل آذاك بكلام ؟ فيجيبها : كلا ، وهو يقول لى دائماً ، انتظر حتى يأتيك الخير . وأنا أسألك ، متى يجيئ الخير الذى ترجيه ؟ ويكون رد الزوجة : الله كريم . فلا يتردد الصياد في القول : صدقت . ويحمل شبكته إلى البحر في اليوم الأول بعد الأربعين .

فإذا بها تصيد حماراً ميتاً « منفوخاً ورأخته كريمة » فيقول « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ثم يكاد إيمانه يتزعزع وهو يخاطب نفسه « قد عجزت وأنا أقول لهذه المرأة ، ما بقى لى رزق فى البحر ، دعيني أرك هذه الصنمة . وهي تقول : الله كريم — سيأتيك بالخير . فهل هذا الحمار الميت هو الخير ؟ »

ويتوجه فى غم شديد إلى مكان آخر مبتعداً عن رائحة الحمار وبقى شبكته فتحمل إليه الخير كل الخير ، فى صورة سمية البحرى يبادلها فاكهة البر بجواهر البحر .

ويبقى أن صاحب القصة لم يختار اسم عبد الله اعتباطاً . وهذا الاسم يميز ماأنا ذاهب إليه من أن القصة يحركها روح دينى ، ويسرى فى أعطافها إيمان عميق . فلم يختص المؤلف عبد الله البرى وعبد الله البحرى بهذا الاسم . فهذا الملك يسأل صهره عن يكون صديقه الخباز وما اسمه ، فيجيبه الصياد « اسمه عبد الله الخباز . وأنا اسمى عبد الله البرى . وصاحبى اسمه عبد الله البحرى » —

فيقول الملك « وأنا اسمى عبد الله ، وعبيد الله كلهم إخوان » وهانحن أولاء نرى شخصاً آخر من أشخاص القصة — وليس من الطبقة الفقيرة كالصياد ، ولا من الطبقة الوسطى كالخباز ، بل هو ملك البلاد بالذات — مفعماً إيماناً وثقة بالله ، فهو قائل لشيوخ الجوهريه ومن جاءوا يتهمون الصياد بالسرقة « يا قبحاء ! أنتستكثرون النعمة على مؤمن ؟ لماذا لم تسألوه أولاً ؟ ربما رزقه الله من حيث لا يحتسب . أخرجوا ، لا بارك الله فيكم »

حياتها في الماء : كالزعنفة الذهبية ، وتلك الأطراف الذائبة من بطونها . ولهذا التصوير أصل من الواقع . وربما سمع صاحب القصة أو رأى نوعاً من الققم يعرف بالدوجونغ Dugong لا تزال تعرض بعض نماذجها على شواطئ المحيط الهندي باعتبارها « أبناء البحر وبناته » . وقد عرض على بعض اليمانيين في عدن ذكراً أو أنثى من تلك الحيوانات اللبونة على هذا الاعتبار

وللقارئ أن يفاضل بين قصة « عبد الله البري وعبد الله البحري » وبين قصص « السندباد » — وربما عالج تلخيصها على هذه الصفحات يوماً — ليرى في هذه الأخيرة خيالاً أغزر مادة وأبرع أسلوباً . وفي رأي أن الخيال في قصص « السندباد » غاية ينتهي إليها الوصف . بينما هو في قصة « عبد الله » واسطة لغاية هي ما نحن بسبيله من المراسى الفلسفية للقصة

وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى قصيدة « شيلر » وعنوانها « النواص »^(١) . وفيها رسم لنا خيال الشاعر « الرومانتيكي » صورة لأعماق البحر من نوع يختلف كثيراً عما نحن بسدده في قصة « عبد الله البحري » . إذ يطلق « شيلر » العنان لخياله في أسلوب جمع كافة الميزات الشعرية . بينما ينهج صاحب قصة « ألف ليلة » نهجاً واقعياً مباشراً في وصف عالم البحار . كأن عبد الله البحري أحد الأدلاء يشرح للسائح عبد الله البري ما تقع عليه بأصرته تباعاً

وبرغم هذا الأسلوب الواقعي ، يلقى علينا المؤلف درسه الديني من طرف خفي . ويظهرنا على قدرة الخالق بما يسرده علينا من وصف أنواع غريبة من المخلوقات . وإذ يبدى عبد الله البري عجبه لكثرتها ، يحبيه عبد الله البحري « وأى شيء رأيت من العجائب . أما سمعت المثل القائل : عجائب البحر أكثر من عجائب البر ؟ » . وهذه حقيقة لا مغالاة فيها ، يعرفها كل من درس علم الأحياء

ويدخل الصديقان مغارة عبد الله البحري . وهنا منظر عائلي كله أنس وبهجة . تأمل كيف تتندر الأميرة بالضيف « الأزعر »

(١) أعلن رجائي أن يفضل حضرة الدكتور محمد عوض بترجة هذه القصيدة لجللة « الرسالة » . ومع يقيني بأن ترجمة كاتبة ما كانت لا تستطيع أن تنفي على توفيقها الواسع الرائع ، إلا أن ما نعرفه عن مترجم « فاوست » و « هيرمان ودوروتيا » يدعنا إلى الأمل أنه لا يجرم قراء العربية من قصيدة شيلر Der Tancher

وهو القائل بعد سماعه قصة الصياد « يارجل ، هذا نصيبك ولكن المال يحتاج إلى جاه ، فأنا أسندك بجاهي » ثم زوجه الأميرة ابنته وماذا تتوقع أن يكون اسم الأميرة بعد هذا ؟ أم السعود ! لو أن كاتباً رمزياً كتب قصة الايمان لنا اختار للأميرة اسماً أفضل من هذا . « أم السعود » ، السعود الذي يلعب في طالع المؤمن القانت .

ونعال معنى إلى القسم الثاني من القصة ، ماذا نرى ؟

هذا عبد الله البحري يسأل صاحبه عن قبر النبي وبقول : « هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة هذا النبي الكريم » . ثم يدعو عبد الله البري أن ينوص بصحبته في أغوار البحر ليحمله هدية إلى قبر النبي

وتنتج القصة بعد ذلك اتجاهها فلسفياً واضحاً لمن يطالع ما وراء السطور . فهذا البحر مظهر من مظاهر الكون تتضائل حياله الأرض التي نعرفها . وما هو ذا « الدندان » أكبر أحيائه طرا يأكل من دواب البحر « أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر القوي يأكل الضعيف ؟ » حكمة الخالق بصدع بها المخلوق ويخشى عبد الله البري إذا نزل مع صاحبه إلى البحر « أن يصادفه هذا النوع فيأكله » . وهنا يكشف صاحب القصة عن سرماه الفلسفي ، إذ يؤكد لنا بأن « الدندان » يموت لساعته إذا أكل ابن آدم . وليكيف أن يصيح فيه الانسان صيحة ليموت . أي تأمل ما تميز به الانسان الضعيف بجسمه ، فهو يستطيع بهقله أن يتغلب على المخلوقات الأخرى . وهذا عبد الله البري يسبح في أمواه البحر فيرى جميع الأحياء البحرية تهرب منه . ويسأل صاحبه عن هذا فيجيبه « مخافة منك ، لأن جميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم »

ويشهد بطل القصة عجائب البحار كما تخيلها المؤلف . وخياله في أغلبه شبيه بتخيلات الشعوب الفطرية التي ترى في آلهتها صوراً مما تشاهده حولها ، إنساناً أو حيواناً أو مجاداً . ففي هذا البحر الخيالي جبال ووهاد ومدائن . وفيه « شيء يشبه الجواموس وشيء يشبه البقر ، وشيء يشبه الكلاب ، وشيء يشبه الآسسين » وخیال صاحب القصة قائم على ال anthropomorphisme حسب ما اصطلاح عليه الباحثون في نفسية الشعوب الفطرية . فهو يصور بعض الأحياء البحرية تصويراً آدمياً مع تغيير طفيف اقتضته